التوجهات الهندية تجاه العراق حتى عام ١٩١٤
دراسة في الخلفية التأريخية

أ.م.د . أميرة حسين محمود الكريمي

ملخص :

لم يشهد التاريخ في أي من مراحله انقطاعاً للعلاقات بين العراق والهند، بل هي وكما نرى عن طريق هذه الرحلة البسيطة، بأنها موغلة في التاريخ، وممتدة بين البلدين في مفاصل الحياة كافة من اقتصادية وسياسية واجتماعية وحتى الدينية، فهي لم تشهد انقطاع في أي منها على الرغم ممّا ينتابها بعض الفتورة نتيجة بعض الأحداث التي يمر بها البلدين.

إنَّ الهند كانت وما زالت تؤلف دولة كبرى، سواء على الصعيد الإقليمي، أم على الصعيد العالمي. ويمثل ذلك في وزن الهند السياسي، والاقتصادي، والسكاني، والثقافي، والحضاري والدولي الكبير ولاسيما على صعيد علاقاتها الواسعة المتبادلة مع العديد من أقطار العالم في قاراته الخمس، وكثيراً ما يجري الحديث عن الهند بوصفها قارة أو شبه قارة، ويضعها البعض بعد الصين، أو حتى في مصافها.

وعلى صعيد آخر فإنَّ علاقات الهند المتبادلة مع الأقطار العربية، ولاسيّما العراق، كانت قوية منذ العهود السحيقة الموغلة في القدم. وقد أفادت الهند كثيراً من الحضارات القديمة في وادي الرافدين، بالتحديد، مثلما تركت حضارتها القديمة أثرها على الحضارات المعاصرة لها في البلدان العربية لاسيما في الأرض العراقية.

توغل حضارتا وادي الرافدين ووادي السند في القدم. إنَّ اتصالاتهما الأولى تعود إلى "٢٧٥٠" عاماً قبل الميلاد. ويتضح هذا من خلال التشابه العجيب لمردود الاكتشافات الأثرية، والآثار واللقى التي عثر عليها، في كلا البلدين، حتى عهد

قريب[١]، وحبات الخرز وغيرها من اللقى التي عثر عليها في الحفريات العراقية تتسم بالتشابه البالغ مع اللقى الأثرية التي عثر عليها في مواقع "هازيا" و"موهنجودارة" في الهند. وعلى صعيد آخر فإنَّ الكتابات الصورية التي تتسم بالتماثل الكبير مستعملة في البلدين، في العهود السابقة تتسم بالتماثل الكبير بالغ الدلالة[٢].

وعلى ما يبدو فإنَّ سكان "وادي الاندس" كانوا قد أجروا اتصالات عدة مع الحضارات العراقية القديمة، والحضارة السومرية بخاصة، في ذلك العهد. وإلى ذلك جاءت إشارة متأخرة، لكنها في منتهى الجلاء، على لسان سفير الهند في العراق جوبرا " إلى جانب من هذه الاتصالات " وهي الاتفاقية التجارية فقد قال :

" إنّنا عندما ندقق في الاتفاقيات التجارية السومرية التي كتبت، قبل آلاف السنين، وهي أولى الاتفاقيات من نوعها، في تاريخ البشرية عموماً، فإنّنا سنجد أن هذه الاتفاقيات تذكرنا بالحقائق التي باتت معلومة الآن حول تبادل المخترعات السومرية في الفن، وطقوم الزينة الرافدينية، وتجهيزات المواد الغذائية المصدرة من سواحل البحر العربي إلى صنّاع حضارة وادي السند " [١].

وفي العصر البابلي "١٨٣٠ قبل الميلاد"، تعاظمت العلاقات الرافدينية ـ الهندية، لاسيّما العلاقات التجارية فكانت السفن البابلية التي تقصد الحبشة لجلب اللؤلؤ والذهب والعاج وخشب الأبنوس، تتوجه إلى الهند لجلب العطور والأحجار الكريمة[٣]، وقد تأثرت الهند في القرون التالية بدورها بحضارات وادي الرافدين تأثراً كبيراً. من ذلك ـ أن الهند تعلمت النظريات الفلكية، والفنون الجميلة، والرسم، والنحت

---

(١) بضمنها الختم الهندي الذي عثر عليه في "كيش".

(٢) "الهند اليوم" (مجلة)، دائرة الاستعلامات في السفارة الهندية، بغداد، ١٩٥٩، ص٥؛
S.H.Nagvi, Indian History, New Delhi, 1978.

(٣) اشتهرت الهند منذ أقدم العصور بأنها بلد الكنوز.

وفن العمارة[١]. أما أهم صادرات الهند إلى البابليين فهي الجواهر والكلاب الكبيرة التي كان البابليون يهتمون بتربيتها، لأغراض التسلية والحراسة[٢]، والطواويس التي كان التجار الهنود يذهبون بها إلى بابل[٣].

فضلاً عن الأسفار التي كان التجار يقومون بها من بلد إلى آخر لمتابعة شؤونهم التجارية، كانت هنالك مستوطنة للتجار الهنود في بعض مدن العراق القديمة الزاهرة. وقد أثبتت المكتشفات في وادي السند وفي " أور" و" لكش" وغيرهما من الأماكن الأثرية في العراق بأن عهد العلاقات الثقافية بين الهند وجيرانها في غربها بمن فيهم الرافدين القدماء يمتد إلى ثلاثة آلاف سنة ق. م[٤].

أمّا الفترة الممتدة من ظهور الإسلام في القرن السابع الميلادي إلى حوالي القرن العاشر فهي فترة متميزة يمكن تسميتها بـ " العصر الذهبي" بالنسبة للعلاقات التجارية بين الهند والعالم العربي. فقد كان ثمة عامل هام احتفظ بأثره الكبير في تطوير التجارة الهندية ـ العربية، وهو تعاظم القوة السياسية للعرب وانتشار سلطانهم. ويعترف قادة الهند المعاصرون بفضل الإسلام الكبير على حضارة الهند. ويؤكد الباندیت جواهر لال نهرو، بهذا الصدد " أن لدخول الإسلام أهمية كبرى في تاريخ الهند"[٥]. وفي مناسبة أخرى، وفي العام ١٩٦٢، أكد نهرو وبقناعة بالغة" أن القرنين

---

(١) الدكتور محمد إسماعيل الندوي، تاريخ العلاقات بين الهند والبلاد العربية، الطبعة الأولى، بيروت، بلا، ص٧. ١٠؛

J. C. POWEII– Prj, A History of India, New York, 1055;

I. W. Mabbett, Ashort History of India, London, 1968.

(٢) يوسف رزق الله، تجارة العراق قديماً وحديثاً، بغداد، ١٩٢٣، ص١٦.

(٣) "ثقافة الهند" (مجلة)، المجلد الثاني، العدد ٣، دلهي، ١٩٥٣، ص٧٨.

(٤) " ثقافة الهند " ، العدد٣، ١٩٥١، ص٩١. ٩٦.

(٥) جواهر لال نهرو، الهند اليوم وغدا، مكتب الاستعلامات والنشر في السفارة الهندية، القاهرة، ١٩٥٩، ص١٠٦؛

K. Natwar– Singh, The Legacy of Nehru, New Delhi, 1984.

الأولين من صدر الإسلام قد حملا إلينا قوة فلسفية دافعة، تركت أثراً كبيراً على المدنيات الحديثة[١]".

إنَّ قيام الدولة العربية الإسلامية، وانتشار الفتوحات الإسلامية لم يخلف أثره المتميز في مضمار السياسة والفن المعماري، فحسب، بل ترك آثاره العميقة، أيضاً، في ثقافة المجتمع الهندي وفكره. لقد أشار المهاتما غاندي إلى ذلك بقوله، بالغ الدلالة:

" إنني اعترف بمساهمة الدين الإسلامي الرفيعة في ثقافة الهند القومية، بإيمانه الذي لا تشوبه شائبة، بوحدانية الله، والتطبيق العملي للحق" [١].

وفي مناسبة أخرى أكد غاندي حقائق بالغة الأهمية :

في ألمع عصور تاريخكم المجيد بسطت جزيرة العرب سيادتها على نصف العالم، في المشرق والمغرب. وحتى الآن لا يزال نفوذها المؤثر على الهند ظاهراً في حياتنا الروحية والعقلية، نظراً لوجود شطر عظيم من سكان البلاد المسلمين"[١].

وفعلاً، فإن هذا العدد العظيم من سكان الهند المسلمين يؤثر في الحياة الهندية، ويشكل متغيراً هاماً تأخذه الحكومة الهندية بعين الاعتبار، بالضرورة، عند تخطيطها للسياسة الخارجية تجاه الوطن العربي، والعالم الإسلامي إلى يومنا هذا[٢].

أما بالنسبة للتجارة العربية ـ الهندية البحرية، فقد كان أكبر دافع لنشاطها إنشاء مدينة بغداد على يد الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور. ذلك أنه، وللمرة

---

(١) وزارة الخارجية، سفارة الجمهورية العراقية، نيودلهي، الملفات الآسيوية الأفريقية، كتابها السري ٤٨١، ٦ أيلول، ١٩٦٢.

(٢) "السياسة الدولية" (مجلة)، القاهرة، العدد، ١٩٧٣، ص٨٤.

الأولى، تصبح عاصمة الدولة العربية الإسلامية على اتصال بحري مباشر بالبحر العربي، عن طريق نظام مائي متطور، بالنسبة إلى عصره، يعتمد على نهري دجلة والفرات[١]. بل أن ثغر الأبلة[٢]، وجراء كثرة ورود البضائع الهندية، حسبه العرب بقعة من الهند[٣]. وكانت أسواق بغداد، وقتذاك، مزدانة بصنوف الأمتعة المختلفة التي ترد من كل قطر، ولاسيّما من الهند، حيث يرد من البضائع الهندية، العود الهندي، المسك، الكافور، الصندل، الزعفران والعطور[٤]. فضلاً عن ذلك الأعداد الكبيرة من السواح الذين كانوا يأتون من بلاد إلى أخرى، والسفارات المتبادلة، والكتب الهندية العلمية، ولاسيّما منها الكتب المتخصصة في العلوم الرياضية التي كانت تترجم إلى اللغة العربية في بغداد. وممّا له بالغ الدلالة الإشارات المتواترة إلى الطبيب الهندي الذي شفا الخليفة هارون الرشيد من مرض عضال، فعُيّن رئيساً للمستشفى اعترافاً بفضله[٥].

تواصلت العلاقات المتبادلة بين العراق والهند في مراحل مختلفة من العهود الإسلامية في الهند، لكن هذه العلاقات تعرضت لضربة قوية باقتحام البرتغاليين الهند في القرن الخامس عشر، وكان من جملة البواعث التي دفعت البرتغاليين لغزو الهند النزوع لمجابهة الإسلام[٦] في الواقع، على الرغم من ادعائهم وتعللهم بالتجارة والتبشير

---

(١) الدكتور سيد مقبول أحمد، العلاقات العربية الهندية، ترجمة: نقولا زيادة، بيروت، ١٩٧٤، ص١٢٠- ١٢١؛

G. Shama, Exporting to Worlds Richest Gulf Countries, Delhi, 1978.

(٢) هو الميناء الأكبر في الخليج العربي، يقع على مقربة من البصرة.

(٣) الدكتور عبد الوهاب العسكري، النهضة الهندية الحديثة والعالم العربي والشرقي، بغداد، ١٩٥٧، ص٣٠.

سليمان إبراهيم العسكري، التجارة والملاحة في الخليج العربي في العصر العباسي، القاهرة، ١٩٧٢، ص٤٦.

(٥) "الهند اليوم"، دائرة الاستعلامات في السفارة الهندية، بغداد، ص٨.

(٦) علي أدهم، الهند والغرب، القاهرة، بلا، ص٣٠.

في العام ١٤١٨[١]، وبذلك أصبح التوسعيون البرتغاليون الوكلاء الأصليين لتجارة الهند الخارجية مع الغرب، وما لبثت أن نشبت صراعات ضارية بين التوسعيين الهولنديين، والدنمركيين، والفرنسيين، والبريطانيين، آخر الأمر، في محاولة السيطرة على تجارة الهند مع أوربا[٢].

وعند منتصف القرن التاسع عشر رسخت بريطانيا سيطرتها التامة، الشاملة، على الهند، بعد أن تغلبت على منافسيها من التوسعيين الأوربيين[٣]. وهكذا مثل الخليج العربي ميداناً ثانوياً للصراع الأكبر الذي تركز في شبه القارة الهندية والمحيط الهندي، قبل العام ١٧٩٨، واتسم النشاط البريطاني في الخليج، خلافاً للنشاط الفرنسي، بالتواصل الكثيف خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر[٤]، لا لسبب إلا لأن بريطانيا خشيت من احتمال تعرض ممتلكاتها في الهند لهجوم فرنسي يتخذ من الخليج العربي ممراً له. ولذلك بادرت بريطانيا باتخاذ تدابير احترازية احتياطية، وبذلت جهوداً دبلوماسية مكثفة في أقطار الخليج الرئيسية[٥]. وقد أسفرت تلك الجهود عن تأسيس مقيمية في بغداد، وعقد معاهدات سياسية مع إيران وعُمان، ضمنت لبريطانيا النفوذ الأكبر في تلك البلاد، بكوّن أن ذلك يشكل جزءاً أساسياً من نظامها الدفاعي عن الهند[٦]، فأقدمت على الاستيلاء على جميع الطرق المؤدية إلى الهند، وأهمها

---

(١) "الهند" (جريدة)، عدد خاص بمناسبة العيد العاشر لتأسيس الجمهورية الهندية، ٢٦ كانون الثاني، ١٩٦٠.

(٢) الدكتور سيد مقبول أحمد، العلاقات العربية، ص١٣٣.

(٣) الكسندر ادموف، ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها، ترجمة الدكتور هاشم صالح التكريتي، الجزء الثاني، البصرة، ١٩٨٩، ص١٢٠؛ عبد الفتاح إبراهيم، على طريق الهند، بغداد، ١٩٣٥، ص٦.

(٤) لاسيّما بعد الحملة الفرنسية على مصر في ١٧٩٨.

(٥) فارس والعراق وعُمان.

(٦) الدكتور صالح محمد العابد، موقف بريطانيا من النشاط الفرنسي في الخليج العربي ١٧٩٨. ١٨١٠، بغداد، ١٩٧٩، ص٢٨٩. ٢٩٠.

الطريق الذي يمر عبر العراق. وهذا هو في الواقع ما دفع شركة الهند الشرقية الإنكليزية للعمل، بأقصى الحماس منذ ذلك الوقت المبكر على ترسيخ نفوذها في البصرة وبغداد. واستطاع ممثلو شركة الهند الشرقية أن يحتلوا موقعا استثنائياً استراتيجياً مكنهم من ممارسة تأثير فعال على سير الأحداث المحلية، بفضل قرب العراق الجغرافي من الهند، وعلاقاته التجارية الوثيقة معها منذ القدم. وهكذا أنشأت بريطانيا في نهاية القرن الثامن عشر خطاً ملاحياً لسفن شركة الهند الشرقية بين بومبي والبصرة. وعند نهاية العام ١٨٣٥ بدأت بإنزال الباخرتين، الفرات ودجلة إلى شواطئ نهر الفرات. وقد سيرت حكومة الهند، قبل العام ١٨٦٢، رحلات للبواخريين بين مرافئ الهند والخليج العربي، أما المبادرة الأخرى التي أعقبت الملاحة، مباشرة، فقد كانت ربط العراق مع أوربا والهند، بخطوط البرق " التلغراف" [١].

اتسمت هذه الحقبة التاريخية، باتساع العلاقات التجارية بين العراق والهند فكانت تجارة القهوة والتوابل والشاي والجوخ والجواهر والسكر والكوجرات مزدهرة في العراق[٢]، أما ما كانت تستورده الهند من العراق فهو الأصواف والجلود إلى جانب التمور والحبوب. وكانت بغداد لوحدها تصدر إلى الهند عرق السوس، الجلد والمدبوغ، الصوف، السمن، شعر الماعز والعفص، وجدير بالذكر، أن السفن الشراعية قد نقلت إلى الهند وبعض موانئ الخليج العربي، في أربعينيات القرن التاسع عشر، ما يقارب "٩٠٠٠" طن من التمور المعبأة في سلاسل، أو في أكياس من الصوف والخصاف[٣]، وعلى صعيد آخر، فإن البواخر كانت تنقل شحنات وإرساليات البريد الأوربي الوارد إلى البصرة وبغداد، عن طريق الهند، وبالمقابل كانت طبعاً تنقل

---

(١) اسكندر داموف، ولاية البصرة ص١٦٧. ١٦٨.

(٢) يوسف رزق الله، تجارة العراق، ص١٣٢؛

B. R. Nanda, Essay in Modern India History, Bombay, 1980.

(٣) الكسندر اداموف، ولاية البصرة، ص٢١٤. ٢١٦.

إرساليات بريد هاتين المدينتين إلى الهند وأوربا، وظل تبادل هذا البريد متواصلاً، على هذا الطريق، حتى نشوب الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤[١].

وأخيراً فإنَّ فتح قناة السويس عام ١٨٦٩، واستحواذ دزرائيلي البريطاني اليهودي، على معظم أسهم القناة[٢]، جعل البريطانيين الوسطاء التجاريين الرئيسيين بين الهند وبلدان الغرب[٣]، بيد أن فتح قناة السويس لا يعني أن العراق فقد أهميته الستراتيجية، بل بقي العراق متمتعاً بذات الأهمية التي أشار إليها الدكتور زكي صالح، في كتابه "بريطانيا والعراق حتى عام ١٩١٤"، إذ قال:

" إنَّ أهمية طريق العراق العسكرية والسياسية لأمر في غاية الخطورة، وأن أهميته الأكيدة بالدفاع ليس عن تركيا فحسب، بل والمحيط الهندي، لهي أشد بكثير مما يظن لأول وهلة"[١].

فإنَّ وقوع العراق، على طريق الهند "درة التاج البريطاني"، جعل بريطانيا مصممة على أن لا تترك طريقاً يؤدي إلى الهند، دون إحكام سيطرتها عليه، بل بلغ الأمر بالسير وليم ويلكوكس[٤]، أن يقترح وقتها إنشاء أربعة سدود، سدين على دجلة، وسدين على الفرات، وجلب العمال الوافدين من مصر والهند لبناء هذه السدود، نظراً لافتقار العراق إلى الأيدي العاملة[٥].

استطاعت بريطانيا تحجيم نشاط جميع الدول الأوربية في شط العرب، بعد اتفاق ٢٩ تموز ١٩١٣، الذي عقد بين حقي باشا وزير خارجية الدولة العثمانية،

---

(١) خيرات البيضاوي، الهند وسياسة الحياد، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٥٤، ص١٦؛ عبد العزيز نوار، المصدر السابق، ص١٣٥. ١٣٦.

(٢) الدكتور سيد مقبول أحمد، العلاقات العربية، ص١٣٦.

(٣) يوسف رزق الله، تجارة العراق، ص١٣٥.

(٤) من أكبر الثقافة في شؤون الري والزراعة في الهند والعراق ومصر.:

(٥) عبد الفتاح إبراهيم، على طريق الهند، ص١٢٥، ١٥٨.

وآرثر هوتز سكرتير القسم السياسي في حكومة الهند، وباركر، مساعد ـ وزير الخارجية البريطاني. وقد نص هذا الاتفاق على تشكيل لجنة لإدارة الملاحة في شط العرب(١).

إنَّ تركيز حكومة الهند على تأمين الهيمنة المطلقة على العراق، كما تجلى عبر تصريحات كامبون، وزير الهند بهذا الصدد، أمر يثير الاستغراب، وقتذاك. فقد ذكر هذا السياسي الاستعماري بالفوائد العظيمة التي ستأتي بها هذه الهيمنة، بل أن الأمر بلغ به حد مطالبته بدوام بقاء البصرة وبغداد تحت النفوذ البريطاني. وأكثر من ذلك، فإن حكومة الهند كانت تعارض، كل المعارضة، في دخول البصرة وبغداد في قوام الدولة العربية المقترحة(٢).

ولعل حجم التجارة القائمة آنذاك يستطيع تفسير هذا الموقف، فقد قدرت قيمتها بـ "١٥٩٤٤١" ليرة إسترلينية من الحبوب فقط لعام "١٩١٤"، مع أنها لم تتجاوز إلا "٣٦٠٠٠" ليرة إسترلينية للفترة من "١٩٠٥. ١٩١١". أما استيرادات العراق من الهند، خلال هذه المدة فهي : التوابل، والفلفل، والقرنفل، والهيل، والجوز بدا "الكركم"، والشاي، والسكر البلوري، والبن، والرز، المنسوجات القطنية والغزول، وما يعرف بالتمر الهندي، والخشب " الصندل"، والخشب "الجاوي" وأكياس الجنفاص(٣).

وممّا لاشك فيه من أن الحرب العالمية الأولى ١٩١٤–١٩١٨ شكلت انتكاسة كبرى للعلاقات بين العراق والهند على الأصعدة كافة ، وبعد أن بادرت بريطانيا بإرسال قوة من الهند في الأول من تشرين الأول عام ١٩١٤ لترابط في البحرين، كان هدفها حماية منشآت النفط في عبادات، ومنع الألمان والأتراك من السيطرة عليها،

(١) طالب جاسم محمد القريب، ميناء البصرة، "دراسة تاريخية ١٩١٥ـ ١٩٥٦"، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة البصرة، ١٩٨٤، ص٣١.

(٢) الدكتور فاروق صالح العمر، حول سياسة بريطانيا في العراق ١٩١٤ـ ١٩٢٤، بغداد، ١٩٧٧، ص٩٩.

(3) Khazal Asmail Abraheam, Indian Iraq. Trade and economic relations, Delhi, P. 56.

وعندما أعلنت الحرب بين بريطانيا ـ وتركيا في الخامس من تشرين الثاني ١٩١٤، بادرت هذه القوة إلى احتلال البصرة في ٢٢ تشرين الثاني من العام نفسه[١]، وجعل عدد الجنود الهنود، يتعاظم باطراد[٢] فاستطاع الإنكليز بفضل الهنود، أن يحتلوا بغداد ويبلغوا الموصل. وكان ذلك من الأسباب التي أدت إلى اندلاع (ثورة العشرين ١٩٢٠)، الذي استطاع الإنكليز قمعها عسكرياً، بمعونة الجنود الهنود. ويشير الباندیت جواهر لال نهرو، في كتابه "لمحات من تاريخ العالم" بهذا الصدد، بقوله :

ففي هذا القول دلالة واضحة لأسباب الانتكاسة في العلاقات بين العراق والهند، والتي نأتي بأذن الله على البحث فيها مستقبلاً.

The Indian Tendency towards Iraq Until 1914
A study of the Historical background

ABSTRACT :

The history did not witness at any stage a disruption of the relationships between India and Iraq. It is deep-rooted in history as we have seen through this simple journey. It extends between the two countries in all the aspects of life, economic, historical and even religious. It did not seen any disruption in spite of the frequent disaffection that afflict the relationship due to the events.

(١) محمد أمين العمري، تاريخ العراق خلال الحرب العظمى ١٩١٤ــ ١٩١٨، بغداد، ١٩٣٥، ص١٠. ١١.

(٢) مذكرات اغاتان، من دار العلم للملايين، ط١، بيروت، ١٩٥٩، ص٢٠٠.